من ماكْفلافلِ إلى نسكافه: أهمية «المحليّ» و«الصغير»

في تموز (يوليو) واجهتْ إدارةُ ماكدونالدز في مصر أضخمَ مقاطعة شعبية في تاريخها داخل العالم العربيّ. فعمدتْ إلى خطوتيْن ذكيتيْن: أضافت إلى لائحة مبيعاتها سندويشًا جديدًا اسمه مَاكْفَلافل (!)، ثم روّجتْه عبر شعبان عبد الرحيم ـ المغنّي المصريّ المحبوب بسبب أغنيته «أنا أكره إسرائيل.» وبذلك ظنّت ماكدونالدز أنّها كَسبتْ رضى المصريين عنها، ولاسيّما مع ازدياد عدائهم لسياسات الولايات المتحدة التي تمثّل تلك الشركةُ رمزَها الأهمّ.

لكنّ الرياح جاءت عكسَ ما تشتهيه سفنُ ماكدونالدز، لا لأنّ المصريين رَفضوا دفعَ خمسة أضعاف ما يَدْفعونه عادةً لقاءَ «الطعمية،» ولا لأنّهم تشبّثوا براية المقاطعة، وإنّما لأنّ اللجنة اليهودية الأميركية AJC في شيكاغو سمعتْ بتعاون ماكدونالدز في مصر مع شعبان عبد الرحيم، فشنّتْ حملةً أجْبرت الشركةَ على إلغاء هذا التعاون. ووجد صاحبُنا شعبان نفسَه في موقف معيب: لقد تخلّت عنه ماكدونالدز بسبب كرهه لإسرائيل، بعد أن حاولت أولَ الأمر استغلالَه بسبب ذلك الكره نفسه!

وأما لبنان فيَشْهد منذ عدة شهور ظاهرةَ قبول فنانين تقدميين رعايةَ نسكافه لحفلاتهم الغنائية. الجدير ذكرُه أنّ نسكافه أحدُ أهمّ منتوجات شركة نستله السويسرية الداعمة للكيان الصهيونيّ منذ عام ١٩٩٧، عقب حملة منسّقة قامت بها المنظماتُ الصهيونية ضدّ الحكومة السويسرية ونستله. وقد اشترت نستله ١,٥٠٪ من شركة أوسم الإسرائيلية، وصبّت عام ٢٠٠٢ وحده ثمانين مليون دولار في عجلة الاقتصاد الإسرائيليّ، وبَنَتْ مواقعها في منطقة سيديروت (النجد سابقًا) التي سَبَقَ أن تعرّضتْ لتطهير عرقيّ عام ١٩٤٨، وتوظّف حاليًا أكثرَ من أربعة آلاف إسرائيليّ في أحد عشر مصنعًا أو «مركز بحث وتطوير.» ولذلك كلّه، قدّم ناتانياهو لشركة نستله عام ١٩٩٨ (وكان وقتَها رئيسَ وزراء العدو) جائزةَ اليوبيل احتفاءً بمرور ٥٠ سنة على إنشاء «إسرائيل.»[١]

لكنّ هذه المعلومات لا تهمّ فنانينا كثيراً. ولهذا يقول أحدُ المغنّين الذين رَعَتْ نسكافه حفلَهم: «الناس ما رح تتعرّف على الشركة من خلال الحفل!» (جريدة السفير، ١٥ تشرين الأول، ٢٠٠٣، ص ٩). ويؤكّد مغنٍّ آخر أنّه يعرف أنّ نستله تَدْعم العدوّ ولكنّه يَسْتخدم أموالَ رعايتها لحفر قبرها وقبرِ الرأسمالية نفسها (يَحْيَ ماركس!). ويذهب الفنّانُ الأول إلى استعداده لقبول المال من إسرائيل نفسها إذا كان سيَشْتمها به (السفير، ٢٢ تشرين الأول، ٢٠٠٣).

خذوا نَفَسًا يا شباب. كلّنا نعرف أنّكم تحتاجون إلى الدعم لكي تواصلوا رسالتَكم الفنيةَ والإنسانيةَ التي تزداد صعوبةً. لكنّ قبولَكم رعايةَ الشركات الداعمة للعدوّ يُقوّض صدقيتَكم، بل صدقيةَ الأفكار الكبيرة التي نشاطركم إيّاها. إنّ مسألة التمويل ليست جواربَ نَنْزعها ونَلْبسها متى شئنا، وإنّما هي مسألةٌ لصيقةٌ بالمبادئ نفسها. فالغناء تحت رعاية شركة ما، أو الغناء دعايةً لشركةٍ ما، يؤدّيان إلى أمرٍ واحدٍ في النهاية: تلميعُ صورةِ شركةٍ تتعرّض للانتقادات في العالم كلّه. ومن مصر إلى لبنان وما يتجاوزهما، تقوم شركاتٌ تَدْعم العدوّ أو تَدْعم الاحتلالَ الأميركيّ للعراق باستخدامكم لكي تَمْنعوا تلطيخَ صورتها في أذهان العرب، وبخاصةٍ في أذهان اليسار القوميّ التقدميّ، بل وفي أذهانِ جماهيرِ كرة القدم من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة الحال، وبعضُهم من اتجاهات إسلامية أيضًا.

لسنا نحن مَنْ «نَفْلت» على اليسار كما زَعَمَ أحدُ الصحفيين لناشطي المقاطعة ذاتَ يوم، وإنّما نستله والشركاتُ الداعمةُ للعدوّ هي التي «تَفْلت» اليوم في «دعم» اليسار والإسلاميين (ما دام ذلك في صالحها، كما اكتشف صاحبُنا شعبان). والشركات في سياسة دعمها هذه تَعْرف تمامًا ما تَفْعله: فمقابلَ حفنةٍ من الدولارات (لا تتجاوز الأربعة آلاف)، وهي أقلُّ بكثير من أيّ حملة إعلانية ناجحة، تروّج هذه الشركاتُ لصورتها... وبصوتِ مَنْ يُفْترض أنّهم أعداؤها! والشركات ليست سبّاقةً في ذلك؛ فأثناء الحرب الباردة عمدتْ حكومةُ الولايات المتحدة (التتمة ص ١٢٠)

كيرستن شايد/سماح إدريس

١ ـ المعلومات كلّها مستقاة من مقالة كيرستن شايد «نستله والصهيونية،» الصادرة في نشرة **قاطعوا**، حزيران (يونيو) ٢٠٠٣، ص ٣.

تتمة الافتتاحية ص ١

من ماكْفلافلِ إلى نسكافه: أهمية «المحليّ» و«الصغير»

نفسُها إلى دَعْم نشاطات ثقافيةٍ وفنيةٍ أميركيةٍ معارضةٍ لسياستها، وذلك خارج الولايات المتحدة، بل وفي بلدان شيوعية كبولندا تحديداً، فحققّتْ بذلك هدفًا مزدوجًا: ١) أظهرتْ لهذه البلدان تسامُحَ أميركا المناقضَ لديكتاتورية البلدان الشيوعية، و٢) تخلّصتْ من الفنّ الأميركيّ المعارض الذي يمكن أن يشكِّل حافزاً تعبويًا ورَمَتْ به خارج حدودها!

هذا يوصلنا إلى قضية المقاطعة الثقافية التي يشنّ عليها بعضُ الصحفيين الليبراليين حملةً شعواء. فحين أَعْلن الكاتب الكبير صنع اللّه إبراهيم عن رَفْضه لجائزة الدولة المصرية قبل أيام، كان يعزِّز بذلك موقفًا ثوريًا مقاطعًا عَبَّرَ عنه في مجمل مسيرته الروائية، ولاسيّما في روايته البديعة: اللجنة، حين قال على لسان بطله: «لقد كان من واجبي لا أن أقف أمامكم [أعضاء اللجنة] وإنّما أن أقف ضدّكم... ذلك أنّ كلّ مسعًى نبيل على هذه الأرض يجب أن يتّجه للقضاء عليكم.» إنّ كلّ واحدٍ فينا يقف، وأحيانًا عدةَ مرات يوميًا، أمام لحظات حاسمة: هل يشتري هذه البضاعةَ رغم علمه بدَعْمها للعدوّ؟ هل يَقْبل تمويلَ هذه المؤسسة أو تلك الحكومة رغم علمه بتاريخهما الشائن؟ فإمّا أن يستسلم لإغراء السلعة والعادة، ولإغراءِ المال ومصافحةِ الوزير (!)... وإمّا أن يَنْتهز الفرصةَ ليروِّج لرسالته السياسية والوطنية والأخلاقية بكلّ قوته. والمعيار في المقاطعتين، مقاطعة البضائع الداعمة للعدوّ والمقاطعة الثقافية لجوائز السلطة الظالمة والمطبِّعة، واحد: هو الإيمانُ بالحقّ. وبعبارة أخرى، إمّا أن يفكِّر كلُّ واحدٍ فينا في ما يستطيع فعلَه حتى وإنْ كان هذا الفعلُ صغيراً و«محليًا،» وإمّا أن نتخلّى عن إيلاء أيّ قيمة لأيّ أمرٍ صغيرٍ «ومحليّ.» اللافت أنّ ماكدونالدز ونستله، رغم ضخامتهما وانتشارهما على مجمل الكوكب، لم يَسْلكا الخيارَ الثاني!

كيرستن شايد/سماح إدريس
بيروت